والآن ... الى الثورة الفكرية !

بقلم الدكتور محمد النويهي

٢ ـ الاخـــلاق وحريـــة الفكـــر

اذا كـان الدين(*) هو اول حجة تستخدم في مقاومة الافكـار الجديدة ، فان الحجة الاخلاقيـة هي الحجة الثانية . بل كثيرا مـا تمتزج الحجتان ، فيقال عن الرأي الجديد انـه هـادم للدين مفسـد للخلق . وقد رفضنـا ان يقيد الفكـر الجديد باسم الديـن ، فهـل نقبل تقييده باسم الاخلاق ؟ فلننظـر فيمـا يقوله مـن يستعملون هذه الحجـــة .

يقولون : كيف نسمح لمفكر بان يعبـر عن آرائه اذا كانـت تناقض الخلق القويم ، وتزعزع تقاليـد الفضيلـة ، وتبث سموم التحلل الاخلاقي وتدعـو الى مـا هـو رذيلة سافرة ؟ الا يحق لنـا محافظـة على اخلاقنا الطاهرة وقيمنـا الرفيعـة وتقاليدنا الكريمة ، وحفظا لكيان المجتمـع الذي لا تقوم له قائمـة اذا اهدرت حدود الفضيلة وشاع الاثم والفساد، ان نحرم تداول الاراء . المرذولة والمذاهب المفسدة لاخلاق الرجـــال والنساء ؟

وكلامهم هذا يبدو ـ هـو الاخر ـ وجيها . السنا نؤمن حقـا بانه لا بقاء لمجتمع اذا اهدرت فيه القيم الاخلاقية ؟ لكـن اسبابـا كثيرة معقدة تجعلنـا نرفضه من اساسه ونرفض ان يتخذ حجة لتقييد الفكـر الجديد . اولهـا واوضحهـا استحالـة تحديد ما الخير وما الشر والاتفاق على مقياس اخلاقي واحد يفصل بين الفضيلة والرذيلة ويبين القيم الرفيعـة تبيينـا يرضاه الجميع ويقطع كل شك . ومعنى هـذا استحالـة الوصول الى حكـم قاطع في اي الاراء مفسد للخلق وايهـا لا ضير منه على الخلق ، اضف الى هـذا سببا ثانيا كبير الخطـر ،هو ان كل مجتمع يعتقـد ان اخلاقه وقيمه وتقاليده فاضلة خيرة كريمة، ويصعب عليه ان يدرك حاجتهـا الى التغيير كلمـا تغيرت اوضاعـه واحوالـه .

فالحق ان القيم التي لا اختلاف فيهـا هي تعبيرات عامة جـدا ومبهمـة جدا . كلنـا يؤمـن بان العدل فضيلة وان الظلم رذيلـة، ومعظمنـا يسلم بان القسوة شر وان الرحمـة خير ، لكن الصعوبة تنشأ في التطبيـق ، ما هـو السلوك العادل في مسألة معينة ؟

وهل الحكم الذي اصدره قاض في قضيـة معينة قاس اومتهاون؟ هنا قد تختلف الاراء وقد تتناقض .

ونحن جميعا نسلم بان العفة فضيلـة وان الشهوانيـة رذيلة ، ولا نشك في هـذه القيمـة الاخلاقية . لكن بعضنا يعتقدون ان العفـة لا تتحقق الا بالزواج بامرأة واحدة ، ويستشنعـون تعـدد الزوجـات ويرونـه لا يختلف في شيء عن الزنا . في حيـن ان اخريـن لا يـرون فيه قبحـا . بل منهـم من يعده فضيلـة كبيرة لا يستطيع الرجل بدونها ان يثبت رجولته كما انهـا مرتبطـة بمحصوله الثقافي المتمثل في مدى ادراكه لحقـائق الوجـود وحقـائق المجتمع البشري والطبيعة البشرية ففـي النـوع الاول مـن المجتمـع اذا قـام مفكـر يدعـو الى السمـاح بتعدد الزوجات في حالات معينة يرى التعدد فيهـا ضرورة وخيـرا اتهـم بافساد الاخلاق . وفي النوع الثاني من المجتمع اذا قام مفكـر يدعـو الى تقييد هذا الحق المعطى للرجل او الغائه اثار قدرا كبيـرا مـن الذم والادانـة .

وهناك من الرهبان والنساك من يرون الاتصال الجنسي كله قذرا ودنسا ، ولا يرضـون عنه اي صورة محللة او محرمة ، ولو اسلمنا اليوم اليهـم امرنـا لحرمـوا علينـا الزواج تحريما بـاتا وعجلوا بذلك مـن انقراض الجنس البشري !

الحقيقـة التي يشهد بهـا التاريخ هي ان القيم الاخلاقية ليست قوالب ثابتة لا يطرأ عليها التغيير ، بل هي في تطور دائم وتبدل مستمر. وسر هـذا انهـا ليست اعتبارات نظريـة ، بل هي امور حيوية جدا، متصلـة اشـد اتصـال بضرورات المجتمع وظروفه ، مرتبطـة بنظمـه السياسية ، واحواله الماديـة ، واوضاعه الاقتصاديـة وطرق تحصيله للرزق . فهي تتغير ـ او ينبغي ان تتغير ـ كلمـا تغيرت هذه الظروف واختلفت هذه الضرورات . لكـن هذه الحقيقـة هي بالضبط ما لا يدركه او لا يسلم به كثيرون من اعضاء المجتمع ،فهم يصرون على الاحتفاظ بقيم كانت مناسبة لاحوال واوضاع ماضية وربما لم تعد صالحـــة للظروف الجديدة . وهم في هذا الاصرار يتخذون مواقف عاطفيـــة

(*) راجع القسم الاول من هذا المقال في العدد الماضي من الآداب .

مشحونة تجعل من العسير مناقشتهم ، فهم يسخطون اقوى السخط على من يدعوهم الى تغيير قيمهم ويظنون به اسوأ الظنون .

فلنضرب مثلا على تطور القيم الاخلاقية من الانتقال العظيم الذي جاء به الاسلام الى العرب . فالعرب الجاهليون كانوا يتصفون بعدد من الصفات ويمارسون عددا من الممارسات يعدونها اما امورا عادية لا تثير استنكارا ، واما فضائل مؤكدة كبيرة القدر في مجتمعهم . مثل التعصب للقبيلة والاعتداء على القبائل العربيةالاخرى، والانتقام والاخذ بالثأر ، وسفك الدم لمجرد اثبات الشجاعة البدنية والمهارة الحربية ، وشرب الخمر ولعب الميسر تفاخرا بالغنى واظهارا للجاه ، والكرم المسرف لنفس الغرض ، وقدر عظيم من الاباحةالجنسية، واحتقار الاناث ووأد البنات في قبائل شتى . وكل هذه الصفات والممارسات كانت مرتبطة بنظامهم الرعوي الذي يقوم على تسابق القبائل الى الماء والكلاء، ويستلزم قدرا كبيرا من البأس والصرامة للفوز في التصارع القبلي ، ويجعل مكانة القبيلة معتمدة على كثرة ابنائها الذكور .

ثم جاء الاسلام فعد بعض هذه القيم والعادات رذائل كبيرة وحرمها مثل القتل والخمر والميسر والزنا ووأد البنات ، وهبط ببعضها الاخر في سلم القيم ، مثل الكرم الذي ما زال يعده فضيلة لكنه لم يضعه في المرتبة الاولى وحذر من الاسراف فيه ودعا الى التوسط . كذلك الشجاعة اذا استتبعت الاعتداء والقسوة . ثم رسم للعرب طرازا من القيم الاخلاقية مختلفا جدا ، اعطى فيه الدرجة العليا للسلم وعدم الاعتداء بين القبائل ،والعفو والصفح ، واللين والمرحمة ،والحلم والاعتداء والصحو (ضد السكر) ، والتعفف العملي والقولي، والصدق والامانة والوفاء بالعهود . وكل هذه كانت صفات واعمالا يعدها معظم الجاهليين اما رذائل قبيحة تناقض المروءة والبطولة وتدل على الضعف والمهانة ، واما اشياء لا يوليها معظمهم اعتبارا كبيرا . وواضح ان هدف الاسلام كان هو نقل العرب من طور القبلية الى طور اعلى ، يكونون فيه امة واحدة متعاونة متسالمة، وهو هدف لم يكن من الممكن ان يتحقق لو احتفظوا بقيمهم القديمة التي كانت تناسب مجتمعهم القبلي .

فاذا زدنا هذا المثل انعام نظر تجلى لنا اننا برغم اسلامنا لا نزال نحتفظ بعدد غير قليل من الصفات والممارسات البدوية القديمة، ولا نزال نصدر عن عقلية هي في صميمها عقلية قبلية ، الامر الذي يتجلى بنوع خاص في مظهرين كبيرين ، عجزنا حتى الان عن توحيد العرب في امة واحدة تعلو على اختلاف القبائل والشعوب ، واحتقارنا للانثى ورفضنا ان نقر لها بمكانة كريمة في المجتمع .

فاذا جئنا الى امثلة من التاريخ الحديث ، رأينا كم تختلف القيم الاخلاقية التي يعليها النظام الراسمالي عن تلك التي ينادي بها النظام الاشتراكي ويجاهد في اقرارها .

فالنظام الراسمالي يمثل بلا شك مرحلة اكثر تقدما من النظام القبلي والنظام الاقطاعي ، فهو لا يسمح بالتعادي بين افراد الامة الواحدة ، ويلزمهم جميعا بالخضوع للقانون . لكنه مع ذلك يجيز ان تعتدي امة قوية على امة اخرى ضعيفة فتسلبها مصادر ثروتها الطبيعية ، ويبرر هذا الاعتداء باسم التعمير او الاستعمار ، ويحتج له بان الامة المغلوبة لا تحسن استغلال مصادرها ، ويتشدق بما يسميه واجب الرجل الابيض في تحضير الجماعات المتخلفة . وهذا في حقيقته لا يختلف عن تزاحم القبائل في النظام الرعوي على امتلاك الماء والمرعى ، او تصارع امراء المقاطعات في النظام الاقطاعي .

ثم ان النظام الراسمالي ، وان حرم السرقة والاعتداء السافر من الفرد على الفرد في داخل الامة ، واخضع جميعهم للقانون ، قد صاغ هذا القانون صياغة تعطي بعض الافراد امتيازات وحقوقا لا يتمتع بها الاخرون . والذين يفوزون بهذه الامتيازات والحقوق في النظام الراسمالي هم الافراد الذين يبدون حرصا زائدا على تجميع المال لانفسهم . فهذا النظام يجيز لهم في سبيل تجميع ثروتهم ومضاعفة رأسمالهم الوانا من الممارسات يراها انصار الاشتراكية لا تقل في صميمها انانية وجشعا ولا تقل ابتزازا وسرقة عما كان يحدث في النظامين السابقين القبليوالاقطاعي.

وسبب هذا الخلاف ان الاشتراكيين يرفضون الاساس الذي يقيم عليه الراسماليون نظامهم ويبررون به ممارساتهم ، وهو تأسيس النشاط على حافز واحد هو حافز الربح الشخصي . ويريد الاشتراكيون ان يؤسسوا النشاط الانساني على حوافز اخرى مختلفة تمامايرونها اكثر ايثارا وغيرية ، اذ تنظر الى مصلحة الامة كلها دون تفضيل طبقة على طبقة ، وتخطط هذه المصلحة تخطيطا علميا بعيد النظر ولا تتركها مجالا للتنافس والتكالب . ثم تنظر الى مصلحة الانسانية كلها دون تفضيل لجنس على جنس كائنا ما كان نصيب الجنسمن القوة او الضعف .

فاذا اعدنا النظر في قيمنا الراهنة وجدناها خليطا منبقايا النظام الرعوي القبلي ، والنظام الاقطاعي ، والنظام الرأسمالي ، وفهمنا لماذا تلقى الدعوة الاشتراكية ما تلقى من العناء الشديد . فمن النظام القبلي ورثنا ما ذكرناه من الانقسام الداخلي واحتقار المرأة . ومن النظام الاقطاعي ورثنا اساءة الظن بالحكومة وبذل كل جهد في عصيان اوامرها . فهذا النظام لا توجد به حكومة مركزية موحدة بل توجد فيه مقاطعات واقاليم متعادية تسعى كل منها في مصلحتها الخاصة تحت امرة اميرها . ومن هنا لا يزال كثيرون من افراد مجتمعنا يرفضون ان يصدقوا ان الحكومة في صفهم وانها تمثل مصلحتهم العامة . فهم يعدونها عدوة لهم ويجيزون لانفسهم انيخدعوها ويضيعوا حقوقها ويسرقوا مالها . لذلك قولتهم المشهورة ((مال الحكومة حلال)) .ولذلك كثرة حوادث الاختلاسات في المصالح الحكومية والمؤسسات العامة والقطاعات التي اممت .

★ ★ ★

في ضوء هذا كله نستطيع ان نفهم طبيعة المعركة الحامية المريرة التي تنشب حين يقوم بعض المفكرين فيدعون الامة الى تغيير في قيمها الاخلاقية . ونفهم بنوع خاص مدى الصراع الذي سيضطر اليه مفكرو امتنا حين يمضون في ثورتهم الفكرية ، فان امامهم ميراثا ثقيلا متراكما مخلطا من القيم الجاهلية ، والقيم الاقطاعية ، والقيم الراسمالية ، التي تقوم عقبة وعرة دون المجتمع الجديد الذي نريد ان نبنيه ، ونريد ان نؤسسه على النظام الاشتراكي في شؤون المادة والفكر .

ومنشأ المشكلة هو ان الوعي الاخلاقي لمعظم افراد المجتمع يتخلف عن ملاحقة التطور المادي والسياسي والفكري الذي يطرأ على المجتمع وعما يقتضيه هذا التطور من تطوير القيم الاخلاقية . فهم يستمسكون بقيم كانت صالحة لعهد مضى وظروف انقضت ، ويعتقدون انها نهاية الفضيلة وجوهر الخير، ويأبون اباء حارا عنيفا ان يغيروها ، لانهم يظنون ان تغييرها هدم لاساس الفضيلة نفسه . ويتهمون اقبح اتهام من يدعون الى تغييرها ويظنون بهم شر الظنون . فلو كانت القيم الاخلاقية تتبدل تبدلا تلقائيا بتبدل الظروف والاوضاع لما كانت هناك مشكلة . ولو كان الناس مستعدين لتغييرها بسهولة لما كانت هنالك مشكلة كذلك . لكنهم يتشبثون بقيمهم المألوفة ذلك التشبث العاطفي العميق والنفساني المعقد فيكون من العسير زحزحتها من مكانتها الوثيقة المحببة في قلوبهم . بل يبلغ بهم الامر ان يفضلوا الاحتفاظ بها وان جلبت عليهم اضرارا مادية بليغة على ان يغيروها ويكتسبوا بهذا التغيير فوائد جليلة لانفسهم ومجتمعهم .

ولعلك تنجح في ان تثبت لهم ضررها وتقنعهم منطقيا بفائدة

تغييرها ، لكنهم مع هذا يتشبثون بها الى اخر مدى يستطيعونه . ويحتالون حيلا شتى ليحتفظوا لها بقناع الفضيلة التي تتلبس به . وكثيرا ما يتلمسون لها تبريرا دينيا حتى حين تكون في حقيقتها من بقايا وثنيتهم التي سبقت دينهم السماوي .

تأمل مثلا في ختان البنات ، هذه العادة القاسية الضارة التي تنتشر في كثير من الاقطار العربية ، والتي تتخذ في بعضها افظع صورها فيما يسمى الختان الفرعوني . لا شك هناك في انها من بقايا الجاهلية والمجتمعات المتخلفة التي تظن بالمرأة ظن السوء وتحتقرها وتقسو عليها . ولا شك كذلك في اضرارها الوخيمة الجسمية والنفسانية . وقد كتب بعض اطبائنا وعلماء النفس عندنا في بيان هذه الاضرار الخطيرة . لكن انظر كيف يعتقد اكثر المسلمين ان الاسلام يفرض ختان البنت برغم فتاوى العلماء دعك من حملات الاطباء وعلماء النفس . وذلك لانهم يعتقدون ان ختان البنت ضرورة لازمة لعفتها والتزامها مسلك الفضيلة . فهم يكرهون من يحملون على هذه العادة الوحشية ويرونه داعيا الى النجس والفجور ، ولا يرون فرقا بين دعوته وبين الدعوة الى التحلل الخلقي والفوضى الجنسية .

وهذه نفس نظرتهم الى من يقوم بينهم فيدعو الى تحرير المرأة من استبداد الرجل الغاشم واعطائها حقوقها المسلوبة في الحياة الكريمة والمساواة الانسانية الفاضلة .

هم يعتقدون ان غرضه الخفي ليس الا اهدار الزوجية واضعاف رباطها المقدس وتحطيم الاسرة وحمل النساء على التمرد والمروق ونشر الاباحية بين الجنسين . وفي مثل هذه الحالة النفسية من الغضب وسوء الظن يصعب عليهم او يستحيل ان يقتنعوا بان اذلالهم للمرأة وما يوقعونه عليها من الظلم والقسوة ليس الا بقية من نظرتهم الجاهلية الى الانثى ، هذه النظرة التي صورها القرآن تصويرا حيا مؤثرا حين وصف ما يعتور وجه احدهم من الخجل والغيظ حين يبشر بمولد انثى له .

* * *

اذا كان لكل ما ذكرناه مغزى فهذا مغزاه الواحد : اننا لايحق لنا ابدا ان نحرم نشر رأي جديد مخالف لقيمنا وتقاليدنا بحجة انه مناف للخلق القويم ، مهما يبد لنا انه ينافي الفضيلة حقا . فمن يدرينا لعلنا نحن الذين نتصف بخصال مرذولة ونمارس عادات قبيحة شريرة وهذا المفكر المجدد يريد ان يطهر خلقنا ويزكي عملنا وينتشلنا من حمأة الرذيلة التي طال تعودنا عليها ، حتى الفناها واحببناها ولم نر بها قبحا ولا شرا بل ظننا بها الحسن والخير .

فان انت قرأت في تاريخ الجهاد الفكري وتدبرت سير الدعاة الى الاصلاح او الثورة فانك واجد ان كل الداعين الى رأي جديد او مذهب جديد يخالف ما شاع في مجتمعهم قد اتهموا بانهم انما جاءوا ليفسدوا الاخلاق وينشروا الرذيلة ويقوضوا اسس المجتمع الفاضل ويشيعوا التحلل الخلقي . تجد هذا في التاريخ الغربي منطبقا على كل مفكر واع من سقراط الى برنارد شو . وتجده في تاريخنا الحديث منطبقا على كبار مفكرينا ودعاة الاصلاح بيننا ، مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وقاسم امين وعلي عبدالرازق وسلامة موسى وطه حسين .

بماذا اتهم هؤلاء حين قاموا يدعون الى افكارهم الجديدة ؟ ما ترك خصومهم رذيلة خلقية الا الصقوها بهم . فما راينا فيهم الان؟ وهل تستطيع بلادنا ان تفخر بمن يفوقهم نبل خلق وسلامة طوية ونقاء ذيل وحساسية ضمير ؟ وماذا كان يحدث لو نجحنا في قتل آرائهم الجديدة التي كنا نراها وقت ظهورها خاطئة ضارة فاسدة مفسدة ؟ اكانت امتنا العربية تصل الى ما وصلت اليه من مرحلة التقدم وبدء الاقبال على الثورة الجذرية الشاملة ؟

وما مغزى هذا مرة اخرى ؟ اليس مغزاه اننا لا يجوز لنا ان نكبح رأيا جديدا بحجة انه مناقض لقيمنا وتقاليدنا مهما يكن من هذه المنافضة ؟ بلى ، ولكن له مغزى ابعد من هذا بكثير : وهو اننا الان لا نحتاج الى نظير تجديد هؤلاء الذين ذكرناهم فحسب ،بل نحن نحتاج ـ اذا كنا جادين في ثورتنا الجذرية الشاملة ـ الى اضعاف ما استطاعوا في ازمانهم من جرأة على التجديد الفكري . وان مجتمعنا اذن يجب ان يكون مستعدا لان يسمع من مفكريه الثوريين حملة لم يعرف لها نظيرا منذ مجيء الاسلام في معارضة تقاليده الراسخة وقيمه المحببة التي تحتل من قلبه مكانا عزيزا .

٣ ـ الوطنية وحرية الفكر

الثورة الفكرية التي نريد لها ان تقوم فتخضع للنقاش والتمحيص كافة مفاهيمنا السائدة وقيمنا المقبولة ، والتي نرى انه لا نهوض لامتنا العربية من عثرتها الا بقيامها ، هذه الثورة لن تؤلم مشاعرنا الدينية ومشاعرنا الاخلاقية فحسب ، بل لامناص من ان تؤلم ايضا مشاعرنا القومية الى درجة عميقة من الايلام. اعني انها لن تمس مجرد حساسيتنا من حيث اننا نؤمن بدين سماوي معين نفسره تفسيرا خاصا ، ولا مجرد حساسيتنا من حيث اننا نرتضي مجموعة معينة من القيم الاخلاقية نعتقد بفضلها وصلاحها بل هي ستمس كذلك حساسيتنا من حيث اننا مواطنون نتخذ موقفا معينا من وطننا ، ونعتنق طائفة من الاراء حول تاريخه وقضاياه . ونقبل عددا من المسلمات حول ميزات اهله ومناقبهم .

وهذه الاراء والمسلمات عزيزة على قلوبنا ، شديدة التمكن من نفسياتنا ووجداننا ، لان عاطفة الارتباط بالوطن من اقوى العواطف الانسانية في العصر الحديث ، ثم انها تكون على اشد شدتها واعنف توفرها حين يمر الوطن بمرحلة حرجة من تاريخه يتهدده فيها الاعداء الخارجيون ، وهي المرحلة التي يجد وطننا العربي فيها نفسه الان بين الاستعمار والصهيونية . لذلك يكون اخضاع مسلمات الامة وارائها للنقاش والتمحيص الذي سيشكك في كثير منها او يثبت خطأه عملا لا بد ان يجرح شعورنا بالعزة القومية ،وان يثير فينا قدرا كبيرا من الاحساس بالذنب وما يتولد عنه من الشعور بالخجل والخزي . فنحاول ان نداوي هذا الشعور المؤلم بالانكار الغاضب والسخط القوي على من اناروه فينا . ونجده حلا سهلا وتخلصا مريحا ان نشكك في وطنيتهم وقوميتهم ، اي في حبهم للوطن وارتباطهم بقضاياه الكبيرة ، فنرميهم بضعف الشعور الوطني وفتور العصبية القومية ، ونتهمهم بتعمد اخزائنا لمجرد حبهم جلب الخزي الينا ، وبتعمد اشمات الاعداء فينا ، ثم ننزلق من هذا الى اتهامهم بتلك السبة الكبرى والجرم الاشنع : الخيانة الوطنية .

الخيانة الوطنية : هذه هي التهمة الاخيرة التي يتعرض لها كل مفكر ثوري جاد في ثورته يصر على التمحيص الكامل لمفاهيمنا الشائعة وقيمنا الرائجة . ولا اظنني ابالغ اذا قلت انها ـ في الموقف الراهن الشديد الحساسية للامة العربية ـ اكبر خطرا وابلغ ايذاء من التهمة الدينية والتهمة الاخلاقية كلتيهما . فهي اشد التهم فعلا في اثارة الجماهير الغاضبة ، وهي لذلك في ظروفنا العسيرة الراهنة اعسر العقبات التي يواجهها المفكر الثوري . فالذي يحرمنا حرية التجديد الفكري هذه الايام ليس مجرد التقليد الديني الذي يصر على الجمود ، ولا مجرد النظرة الاخلاقية العتيقة التي ترفض التطوير ، بل ربما كنت مصيبا اذا قلت ان ما نعانيه الان من جمود ديني وتحجر اخلاقي ليسا في اغلبهما الا مظهرين من مظاهر حساسيتنا

القومية المفرطة التوفز السريعة التأذي .

لكنني وقد اصررت على ان حرية الفكر الثوري هي ضرورة ماسة لا بد ان نطلقها من اسار فهمنا الديني الشائع ، ومن اسار مواضعاتنا الاخلاقية المقبولة ، اصر الان بنفس الاصرار ، بل بمزيد من الاصرار ، على انها كذلك ضرورة ماسة لا بد ان نطلقها من اغلال فهمنا القومي السائد المسيطر . ولست اعني انها ضرورة ماسة لمفكرينا انفسهم كأفراد مثقفين يجب ان يتمتعوا بحرية التعبير عن افكارهم الجديدة ، بل اعني انها ضرورة ماسة للوطن نفسه ، وانها اشد ما تكون لزوما له في محنته الراهنة نفسها، فالحاجة اليها لم تقل في ظروف هذه المحنة بل هي قد زادت اضعافا .

وفي سبيل اثبات هذا لسنا نحتاج الى ان نناقش معتقداتنا القومية المتعددة مناقشة جزئية مبعثرة ، ولكن نحتاج الى ان نناقش مناقشة اساسية مفهوم الوطنية الشائع لدينا ، حتى نرى حاجته الى ان ندخل عليه تغييرا جذريا .

كيف يفهم معظمنا معنى الوطنية ؟ وماذا ينتظرون حين يقبلون على سماع خطبة او قراءة قصيدة او مقالة يعتقدون انها « وطنية »؟ هم ينتظرون من الخطيب او الشاعر او الكاتب الا يفعل شيئا سوى ان يتغنى بخصالنا فلا يرى فيها الا فضائل ، ويشيد باعمالنا فلا يجد فيها الا مناقب ، ويعلي شأن تاريخنا فلا يقرأ في صفحاته الا مفاخر ومآثر . وان يعرض سلوكنا الوطني في قضايانا الكبيرة فيجده كله صوابا لا خطأ فيه ، وينسب الى الآخرين من اعداء وخصوم كل الوزر وتمام الجرم وكامل المسئولية فيما يصيبنا من نكسات ونكبات وهزائم . منكرا في هذا كله ان تكون بخصالنا رذائل او باعمالنا مساوىء او بتاريخنا مخاز او بسلوكنا الوطني اخطاء وخيانات وجرائم .

لكن آن لنا ان ندخل على فهمنا لمعنى الوطنية تغييرا جذريا يؤدي بنا الى ان ندرك ان الوطنية ليست مجرد الاعتزاز بالوطن والتفاخر بمحامده واعلان مزاياه ومناقبه . بل الوطنية الصحيحة ، الوطنية الصادقة المخلصة ، الوطنية الحكيمة النافعة ، هي الرؤية الواضحة الواعية لحقيقة الاحوال والاوضاع ، خيرها وشرها ، حسنها وقبيحها . ليس هذا فحسب ، بل ان الجزء الاثمن من الوطنية هو الذي يدرك النقائص والعيوب ويعترف بها اعترافا صادقا امينا . هذا هو الجزء الاكبر نفعا ، وهو هو الذي يحتاج الى نصيب اعظم من الشجاعة ومن التضحية ، فهو اكبر تدليلا على صدق الرغبة في خدمة الوطن ونفعه .

ذلك ان الاعتراف بالنقص هو الخطوة الاولى التي لا بد منها نحو محاولة العلاج . فالمفكر الذي يقبل على سيئاتنا فيشرحها تشريحا تام المصارحة وان آلم واوجع ، خير لنا الف مرة من خطيب وشاعر وكاتب يرضي غرورنا ويتملق عواطفنا ويزين لنا كل اخلاقنا واوضاعنا وعقائدنا ويوهمنا بانها جماع الفضائل وملتقى المحاسن وعين الصواب . ذلك الاول هو الصديق الصدوق والناصح الامين مهما تؤلمنا صراحته ، وهذا الثاني مهما يشعرنا بالرضى والسعادة والاطمئنان حري به ان يكون عدوا في ثياب صديق ، او هو على اقل تقدير صديق جاهل يسرنا اكثر بكثير مما يضرنا العدو العاقل .

وهذا هو مفهوم الوطنية الذي انتهت اليه امم حديثة سبقتنا الان اشواطا طويلة في الحضارة الراقية والنضج الفكري والتقدم الوطني. امم مهما يكن من العداء بيننا وبينها — او على الاصح بيننا وبين حكوماتها ورجال سياستها ، فنحن لا نعادي امة من الامم — فلا شك اننا نستطيع ان نتعلم منها الكثير من الدروس الفكرية والوطنية ، لان افرادها لا يمتازون علينا بالنضج الفكري فحسب،بل يمتازون علينا بنصيب اكبر من الاخلاص العملي — لا مجرد التعصب القولي — لاوطانهم ومن السعي الجاد المتفاني في خدمتها وتحقيق اسباب رفاهيتها مقدمين هذا على كل مصلحة شخصية ضيقة .

ان أنس لا انس دهشتي الكبيرة اول ما بدأت دراستي الجادة للادب الانجليزي حين كنت اقبل على انتاج شاعر معين او كاتب معين يقول النقاد الانجليز عنه انه يتميز بقوة الشعور الوطني، او ان القضية الوطنية تحتل نصيبا كبيرا من اهتمامه وتشغل حيزا مهما في انتاجه . فلا اجد ذلك الشاعر او الكاتب في اغلب ما يقول يتغنى بمحامد وطنه وامجاده ، بل اجده على العكس تماما يكثر من التنديد بمواطنيه ومؤاخذتهم بما فيهم من نقائص وما ارتكبوا من جرائم ! واذا هذا هو المفهوم الشائع للوطنية في النقد الانجليزي . فلما تكررت الظاهرة بدأت افهم ماذا يعنون بالوطنية، وادرك كيف يرون دليلها الاكبر هو مدى شجاعة الكاتب او الشاعر في نقد عيوب مواطنيه ومطالبتهم بتغيير ما يرى خطأه وفساده من عقائدهم وقيمهم وممارساتهم .ثم بدأت اسأل في حسرة: متى يتوفر بيننا نحن العرب نظير هذا التطور في مفهوم الوطنية؟

★ ★ ★

لا شك اننا قطعنا مرحلة لا بأس بها نحو هذا التغيير المنشود ولكي ندرك ما قطعناه وما تبقى علينا ان نقطعه نعود بذاكرتنا الى الماضي القريب حين كان يحكمنا حكام النظام الاقطاعي الرأسمالي، فلم تكن الوطنية سوى سياسة تخدير .

كان معظم حكامنا في ذلك النظام حكاما جشعين انانيين لا هم لهم الا نيل مآربهم الفردية وتكديس ثرواتهم والمحافظة على سيطرتهم وجاههم يستغلونه في اشباع غرائزهم وقضاء شهواتهم . ولم يكونوا يهتمون مثقال ذرة بما نعانيه من جهل وانحطاط وتخلف وضعف، بل كان من مصلحتهم ان نبقى عليها لانها هي التي تمكنهم من الاحتفاظ بسطوتهم علينا وانتهاب ثرواتنا واستنزاف دمائنا . لذلك كان همهم ان تظل الامة راضية بحالها متوهمة انها خير حال . فكان يزعجهم اشد ازعاج ان يقوم من ينبه الامة الى فساد حالها ويبغضها فيما هي عليه من العجز والتخلف .

وكانوا يستخدمون طائفة من الكتاب « الوطنيين » وظيفتهم ان يخدروا الامة ويحسنوا اليها تلك الحالة الزرية ، ويحولوا بينها وبين التنبه لحقيقة الامر . فاذا قام من يحاول كشف القناع عن هذا الكذب والتمويه والنفاق حملوا عليه اعنف حملة ورموه بانه جارح للكرامة القومية مزر بالعزة الوطنية ضار بقضية الوطن ، فهو اذن خائن يحالف الاعداء ويخدم اغراضهم .

ثم تبدت تلك السياسة على اتمها في الفضيحة التي كانت في حقيقتها بدء تحرك الضمير العربي وانتباهه الى جرائم الاقطاعيين والرأسماليين . وهو التحرك الذي قاد الى انفجار بركان الثورة في يوليه سنة ١٩٥٢ . نعني فضيحة الاسلحة الفاسدة . فحين بدأت الشائعات المزعجة تنتشر عن سوء حال جيشنا في فلسطين ، وعن ضعف استعدادنا العسكري في مختلف النواحي الضرورية وعن فساد ذخيرتنا وكيف اتخذها الملك الفاسق وحاشيته مجالا للربح غير آبهين لخسائر الارواح دعك من تحقق الهزيمة وحلول العار الوطني ، انبرت تلك الطائفة المأجورة من الكتاب تؤكد لنا ان كل شيء على ما يرام ، وان جيشنا في خير حال واكمل عدة . ثم تحمل على اولئك « الخونة » مروجي الشائعات والاراجيف الذين غرضهم الحقيقي ان يفتوا من عضدنا ويضعفوا من روحنا المعنوية حتى يسهل للعدو التغلب علينا . هم اذن عملاء قد رشاهم الاعداء ليشوهوا سمعة ملكنا الصالح ويلطخوا شرفنا القومي ويخربوا قضيتنا الوطنية ...

ثم كان ما كان من هزيمتنا المخزية في سنة ١٩٤٨ وضياع فلسطين منا وثبوت حقائق الذخيرة الفاسدة . فاتضح لنا اي الفريقين كان الوطني المخلص الوطنية وايهما كان الخائن الماجور ....

وقد قادت تلك الفضيحة كما قلنا بصفة مباشرة الى انفجار ثورة يوليه ١٩٥٢ . ومن يومها اتخذ رجالها في حكمهم لنا سياسة المصارحة ونبذوا سياسة التخدير .

فان اردنا ان ندرك الى اي مدى وصلت سياسة المصارحة هذه فلنقتبس هنا ما قاله قائد ثورتنا ورئيس جمهوريتنا في تلك الهزيمة نفسها ، حين تحدث حديثه التاريخي الجليل الى اعضاء المجلس التشريعي لقطاع غزة ، فكشف لهم عن الاسباب الحقيقية لتلك النكبة (انظر جريدة الاهرام ٢٧ - ٦ - ١٩٦٢) . فأرجع معظمها الى تقصير العرب انفسهم ، لم يتخلص منها تخلصا سهلا بالقاء وزرها على الاستعمار والصهيونية . بل هو قد وضح ان الاستعمار والصهيونية لم يفعلا سوى ان استغلا بمهارة ودهاء عيوبنا واخطاءنا .

في ذلك الحديث الشجاع الذي اعده بداية عهد جديد في تطهر الضمير العربي ، اعطى جمال عبدالناصر تحليلا امينا لاخطائنا ونقائصنا وخيانة حكامنا ، ودلل على انها هي التي مكنت الاستعمار والصهيونية من الفوز بفلسطين . وصف كيف قصرنا نحن العرب في الاستعداد حتى اخذنا على غرة دون ان يكون لنا اي عذر في ذلك التقصير ، فقد قام من بيننا من يحذروننا من ذلك الخطر الماثل . ثم قال دون مواربة « وانا اعتبر ان سبب النكبة في عام ١٩٤٨ هم العرب اكثر من اليهود » . وسجل على الجانب العربي بجيوشه السبعة ما سجل من ضعف الاخلاق واضاعة اموال التسليح في غير ما تسليح .وذكر ما حدث من ضياع مواقع بدون قتال وضياع مناطق دون ان تطلق فيها رصاصة واحدة ... الى آخر ما قال في صراحة نادرة المثال ، مكررا الدرس الاليم : « كنا نحن العرب المسئولين عن هذه النكبة ،وليس نتيجة ١٩٤٨ فحسب وانما نتيجة ١٩٤٨ وما قبلها . « لم يخش في صراحته وامانته لومة لائم ولم يخش غضبة عربي او شماتة صهيوني ولم يهمه ان يأخذ كلامه عدو او خصم ليستغله كما يحلو له.

ومن يومها رفض جمال عبدالناصر ان يخفف من سياسة المصارحة هذه رغم احتجاج من احتجوا عليها . وفي اكثر من مناسبة في احاديثه امام مجلس الامة رفض الحجة التي تقول ان اعترافنا باخطائنا ونقائصنا يسر الاعداء اذ يتمكنون من استغلاله في مصلحتهم . وكان رده المفحم ان الاعداء يعلمون تلك الاخطاء والنقائص ، فاذا لم نتحدث عنها فاننا لا نخفيها عن الاعداء بل نحاول اخفاءها عن انفسنا ..

قلت ان ذلك الحديث كان « بداية » عهد جديد في تطهر الضمير العربي ، ويؤسفني الان ان اضيف اننا نحن العرب لم نمض في المرحلة التي بدأها ذلك الحديث شوطا طويلا . فان سئلت على من يقع وزر هذا التقصير اجبت بدون تردد :على مثقفينا المنوط باعناقهم القيام بالثورة الفكرية . فقد كان ينبغي عليهم ان يتخذوا من ذلك الحديث قدوة صالحة وفرصة ذهبية يستغلونها للتغلغل وراء تلك الاخطاء والنقائص التي لخصها الرئيس جمال عبدالناصر ، حتى يستكشفوا اسبابها الدفينة في تاريخنا واوضاعنا وعقائدنا وقيمنا وعقدنا النفسية العميقة . ولو فعلوا لربما تجنبنا التردي في هزيمة اشنع ومصاب افدح، هو حرب الايام الستة في يونيه ١٩٦٧ ..

بهذا نعود الى ما اثرته في المقالة الاولى من هذه المقالات . ومن كلامي هذا يتجلى للقارىء انني اوقع المسئولية الاولى في تلك الهزيمة القاسية على كاهل المثقفين العرب . فانه اذا كان صحيحا ان هزيمتنا تلك لم تنشأ عن مجرد ضعف عسكري بل نشأت عن ضعف شامل مادي واخلاقي واجتماعي ، فان مثقفينا هم الذين كان عليهم ان ينهضوا بعبء الثورة الفكرية التي تحتاج اليها الامة العربية ، والتي بدونها لن يكتب لثورتنا السياسية والاقتصادية نجاح باق . هم الذين كان عليهم ان ينبهوا الامة الى مدى ضعفها وتخلفها وحقيقة الامر في احوالها وعقائدها وتقاليدها . وهم الذين كان عليهم ان يتقدموا الى قادتنا بالنصح الامين حتى يتجنبوا الاندفاع والزلل . ولا يستطيعون ان يحتجوا بقسوة البيروقراطية وما تضعه امام حرية التعبير من عقبات في شتى اقطار العالم العربي وفي مصر نفسها . فالحرية كما قلت تؤخذ ولا تعطى ، وهي لا قيمة لها ولا مزية فيها ان جاءت سهلة هينة بدون مخاطر وبدون تضحيات . فلنكرر لهم اخيرا ما قاله جمال عبدالناصر في حديثه عن هزيمة يونيه ١٩٦٧ (انظر جريدة الاهرام ٨ - ١١ - ١٩٦٨) :

الان يبدو واضحا امامنا ان كثيرين لم يتكلموا حين كان واجبهم يقضي عليهم بأن يتكلموا ، ومن هنا فلسوف يبقى اهم الضمانات (لعدم تكرر ما حدث) ان يكون في هذا الوطن دائما ذلك الفرد المؤمن الذي يقول كل ما يريد قوله حتى اذا اعطى رأسه ثمنا لايمانه » .

ما اصدقها من كلمات ! وما اشد حاجة وطننا العربي الى امثال هؤلاء الشجعان الذين يصارحون امتنا بحقيقة رأيهم في احوالها وممارساتها وعقائدها وتقاليدها وقيمها ، مهما يسخطوا الامة - ومهما يغضبوا الحكام !

٤ - حرية الفكر .. وحرية العمل

مهما يبد لنا الرأي الثوري الجديد مخالفا لمعتقداتنا الدينية، منافيا لقيمنا الاخلاقية ، خارجا على مشاعرنا الوطنية ومفاهيمنا القومية ، فاننا يجب ان نسمح لصاحبه بالحرية التامة في التعبير عنه ، قولا او كتابة ، دون ان نتتبعه باي عقاب او ايذاء او اضطهاد .... هذه هي الدعوة التي حملتها مقالاتنا هذه ، لكننا نريد في ختامها ان نوضح ان ما ندعو اليه هو حرية التعبير الفكري ،لا حرية السلوك العملي .

فليكفر كل انسان كما يشاء وليقل ما يشاء وليكتب ما يشاء هذا ما ننادي به ، لكننا لا ننادي بان يفعل كل انسان ما يشاء، فهناك فرق بين حرية الفكر وحرية العمل . فبينا حرية الفكر مطلقة او ينبغي ان تكون مطلقة ، اذا بنا نجد من المستحيل اطلاق حرية العمل في المجتمع الانساني ، بل لا مناص من ان يحد العمل بحدود تمليها قوانين هذا المجتمع ونظمه التي تواضع عليها . والكثيرون يخلطون بين هاتين الحريتين فيجلبون بهذا الخلط على حرية الفكر ضررا كبيرا ، ويمدون اعداءها باسلحة قوية في محاربتها . ولعل خير ما نشرح به الفرق بين الحريتين ان نبدأ ببضعة امثلة .

هبني ارى ان حكومتنا مخطئة في السماح ببيع الخمر ، وان من واجبها ان تحرم بيعها . فينبغي ان يكون لي الحق التام في التعبير عن رأيي هذا ، قولا اوكتابة ،في محاضرات او مناظرات او في كتب او مقالات ، اهاجم فيها تحليل بيع الخمر كما اشاء، وابين خطأه وضرره ومخالفته للدين بكل ما نسعفني به قدرتي على البيان . لكن هبني الان لم اكتف بالتعبير القولي والكتابي عن رأيي، فلجأت الى حوانيت الخمر احطمها واخربها . هنا اكون قد تجاوزت حرية التعبير الفكري الى حرية السلوك العملي . وهنا يحق للقانون ان يتدخل فيقمعني ويعاقبني ، بصرف النظر عن كونه قانونا صالحا او غير صالح .

وافرض الان فرضا مضادا . افرض انني اعتقد ان حكومتنا مخطئة في تحريم الحشيش ، وانه غير ضار بالصحة الى الدرجة التي يعتقدها من حرموه - وهذا رأي يرتئيه بعض الاطباء - وان تحريمه

- التتمة - على الصفحة - ٧١ -

والان الى الثورة الفكرية

تتمة ـ المنشور على الصفحة ـ ١٢ ـ

اكثر ضررا من اباحته . هنا ايضا ينبغي ان يكون لي الحق الكامل في اعلان رأيي ومحاولة التدليل عليه ، ويجب ان يقتصر رد الفعل على رأيي هذا على تفنيده واثبات خطئه وتبيين الاضرار الوبيلة لتعاطي الحشيش . اما اذا لم اكتف باعلان رأيي ذاك فاشتريت الحشيش واخذت اتعاطاه او بدأت انشره بين اصدقائي او ابيعه للناس ، فالان يحق للسلطات ان تقبض عليّ فتعاقبني ، لاني هنا ايضا اكون قد تعديت حرية الفكر الى حرية العمل .

او تخيل سودانيا يعتقد ان الحكومة في بلده مخطئة في فرض قانون المرور على الجانب الايسر من الطريق ، متبعة في هذا عادة الامة البريطانية دون غيرها من امم الارض (فقد قررت السويد حديثا نبذ هذه العادة وتحويل المرور الى الجانب الايمن)، فيرى ان هذا ليس الا اتباعا دليلا من مخلفات الاستعمار ، وان من الانفع للسودان اقتصاديا ان تتبع النظام الذي تاخذ به سائر امم الدنيا، حتى تحرر اقتصادها من ضرورة شراء السيارات من بريطانيا وحدها. هذا رأي يقول به كثير من السودانيين الان ، لكن هب احدهم دفعته حماسته لرأيه الى ان يخرج بسيارته في احد الشوارع المزدحمة في الخرطوم او ام درمان ويصر على السير بها على الجانب الايمن !

واليك مثلا من بيئة مختلفة تماما . تخيل انجليزيا يؤمن بمذهب العري وفوائده الصحية ومزاياه الاخلاقية ، ويرى ان التستر بالملابس هو سبب اثارة الشهوات وحفز الغرائز الى ذلك السر المحجوب وان تطهرنا الاخلاقي لن يتم الا بالعري التام . ثم لا يكتفي بالحرية التامة التي تترك له في انجلترا للدفاع عن رأيه ، بل لا يكتفي بالمعيشة في معسكرات العراة التي يسمح بها القانون هناك،فيدفعه تحمسه للعري الى ان يخرج في أحد شوارع لندن او غيرها كما ولدته امه !

وعد بنا الى بيئتنا لتلتمس امثلة موازية ، ولتحكم بان ايمان احدنا بضرر النقاب وخبثه لا يجيز له ان يهاجم النساء اللائي يرتدينه ليمزقه على وجوههن ، وان ايمان الاخر بشناعة «الميني جيب» لا يجيز له ان يعتدي على الفتيات اللائي يلبسنه في شوارع القاهرة وبيروت ... ولكن لا داعي الى المضي في ضرب الامثلة فاني اعتقد ان القارىء يدرك الان السبب الذي يجعلنا نقيد السلوك العملي مهما نطلق حرية التعبير الفكري . فالمجتمع الانساني قائم على تنظيم معين لاعمال الناس ، ورسم موضوع لنشاطهم وسلوكهم وتعاملهم ، وهو لا يمكن ان يبقى له وجود اذا راح كل فرد يتصرف كما يحلو له ، لانه سرعان ما يختل نظامه وتنتشر فيه الفوضى ويتعذر على افراده ان يتابعوا اعمالهم المختلفة ، فتتهدم حياتهم الاجتماعية .

فوجودنا في مجتمع ، اي ان نحيا حياة مشتركة مع اناس غيرنا ، يحد من حقنا في ان نتصرف في كل اعمالنا كما نشاء ، وبرغمنا على ان ننزل عن قدر من حريتنا في العمل مراعاة لسلامة الاخرين وصونا لمصالحهم ، والا اضررناهم ضررا فعليا وعرقلنا سيرهم في نواحي نشاطهم . ما دمنا نريد ان نحيا مع الاخرين فاننا يجب علينا ان نكون مستعدين لقبول قدر معين من التقييد لاعمالنا وسلوكنا . فان كان لنا على مجتمعنا ان يسمح لنا بحرية التعبير التام عن افكارنا وان خالفت آراءه المقبولة وعقائده المعززة ، وان يسمح لنا بحق انتقاد نظمه وقوانينه وممارساته والدعوة الى تغييرها ، فان لمجتمعنا علينا ان نطيع نظمه وقوانينه وان نلتزم بممارساته ما دامت مفروضة ، والا نزيد على حق نقدها وتفنيدها داعين الى تغييرها واستبدال اخرى بها . وعلينا ان نظل هكذا الى ان ننجح في استمالة عدد كاف من الناس الى صفنا واقناعهم برأينا ، واذ ذاك نستطيع ان نغير هذه العادة التي نحمل عليها ونسن بقانون عادة اخرى قد اقتنع الان مجتمعنا او كثرة من افراده بصحتها وفائدتها .

وجودنا في مجتمع يفرض علينا اذن ان نحد سلوكنا العملي بحدود ما يقبله ذاك المجتمع . ولعل من الصحيح ان نقول انه كلما ازداد المجتمع تقدما فازدادت حياته تعقدا زادت القيود التي يفرضها على اعضائه في سلوكهم العملي .

اما اذا اصررنا على الحرية المطلقة ان نفعل ما نشاء فلنغادر المجتمع البشري ولنبحث عن جزيرة موحشة في البحار او واحة خاوية في الصحراء نعيش فيها وحدنا ونفعل كل ما يحلو لمزاجنا ان نفعله .

والسر في هذا الفرق بين حرية الفكر وحرية العمل هو ان حرية الفكر لا تهدد سلامة احد ولا تضر بمصلحته المشروعة ولا تعرقله عن عمله ، وانما اقصى ما تفعله انها قد تؤلم مشاعر الناس او تحزن قلوبهم . وهذه جميعا آلام عاطفية وليست اضرارا عملية وليس فيها في ذاتها اخلال بنظام المجتمع او عرقلة لنشاطه. فواجب المجتمع ان يتحملها في سبيل المنافع العظيمة التي يجنيها حين يسمح بحرية الفكر .

هنا قد يقول القارىء : ولكن اذا اطلقنا حرية الفكر افليس من الممكن ان يؤدي احراجها لصدور الناس وايذاؤها لمشاعرهم الى الاخلال بالنظام واضطراب حبل الامن ، اذ يبلغ غضب الناس على هذا الذي يعبر عن آراء يكرهونها ان يهاجموه ويعتدوا عليه ، وربما يكون هو له عدد من الانصار يرون رأيه فيدافعون عنه فيشيع الهرج وتقوم الفتنة ؟

وهذا كله صحيح ، وهو الحجة التي تتذرع بها البيروقراطيات الحكومية لتقييد حرية الفكر . لكنها حجة لا نقبلها ، والرد عليها هو ان واجب الحكومات في مثل هذا الظرف ليس ان تتدخل فترغم المفكر على الصمت ، بل ان تتدخل فتحميه من ايذاء الغاضبين وتصون حقه في التعبير عن رأيه غير المحبوب ، وان تفهم الجماهير المحافظة ان مصلحتها النهائية هي ان تتحمل هذا الايذاء العاطفي حتى تمكن مفكريها من اداء واجبهم الحيوي في تمحيص معتقداتها وقيمها ونفي الخاطىء الضار منها وادخال التغيير الذي يقتضيه تطور الامة وانتقالها من مرحلة في الاجتماع الى مرحلة ، والا جمدت الامة وتخلفت عن التطور اللازم فتعرضت بذلك لخطر الانقراض.

وهؤلاء المفكرون الثوريون هم دائما ـ في كل عصر وبين كل امة ـ قلة عددية ، ومن هنا نفهم حاجتهم البالغة الى الحماية من غضب المحافظين . ومن هذا نستطيع ان نرسم صورتنا للمجتمع المثالي . فالمجتمع المثالي هو الذي يكون فيه هذا الاتفاق المرعي بين الكثرة والقلة . اما الكثرة فتحترم آراء القلة وتدع لها الحق في التعبير عن افكارها مهما تخالف المعتقدات الشائعة ، وتسمح لها بحرية الانتقاد للاوضاع والعادات والقوانين السائدة مهما تكن عزيزة عليها . واما القلة فتخضع لقوانين الكثرة ولا تخرج خروجا عمليا عليها مهما تظنها خاطئة او ضارة مكتفية بالنقد والدعوة الى التغيير ومنتظرة في صبر ذلك اليوم الذي تنجح فيه في اقناع عدد كاف من افراد المجتمع يمكنها من احداث التغيير المطلوب بطريقة مشروعة منظمة يسنها القانون .

ذلك مقياس بسيط تستطيع ان تقيس به كل مجتمع لتحكم حكما صائبا على جدارته بالبقاء وفرصته من التطور والترقي . لكني اريد ان انبه الى ان هذا الاتفاق مكون من شطرين متلازمين ولا بد من ان ترعى كل من الكثرة والقلة طرفها منه والا اخلت به واباحت للاخرى الخروج عليه . فسماح الكثرة للقلة بحرية التعبير

موقوف على طاعة هذه لقوانين المجتمع ما دامت قائمة والا كانت القلة قد تجاوزت حرية التعبير المشروعة وحللت للكثرة معاقبتها . وطاعة القلة لقوانين الكثرة موقوف على سماح هذه لها بحرية التعبير المطلقة حتى تنقد من الاوضاع والمفاهيم والقيم ما لا يعجبها وتقوم بتنفيذه قولا او كتابة داعية الى تغييره، والا صار مباحا للقلة ان تخرج خروجا عمليا على القوانين القائمة.

هكذا يمكننا ان نحدد الظرف الوحيد الذي يجوز فيه للافراد ان يتجاوزوا حرية الفكر الى حرية العمل : وهو حين يجدون حقهم في التعبير عن آرائهم بالقول او الكتابة مسلوبا ، فلا يجدون امامهم مجالا مفتوحا للتعبير عن استهجانهم لتلك الاوضاع سوى تحديها تحديا فعليا بعصيانها ومخالفتها ومحاولة هدمها بالقوة ، اوفل في كلمة واحدة : بالثورة .

وهذا هو تبرير الثورة : انها الطريقة الوحيدة التي يجدها المفكرون ذوو الضمائر الحية والوعي اليقظ حين يهولهم سوء الاحوال ويرون بثاقب نظرتهم الكارثة التي تسير الامة اليها ولا يجدون وسيلة اخرى لتنبيهها ودفعها الى احداث التغيير الضروري لانه محرم عليهم ان ينبهوا الامة ويبصروها بحقيقة الاحوال ويقنعوها بضرورة التغيير .

اذا كان كلامنا هذا صحيحا فنستخلص الان مغزاه لامتنا العربية في كافة اركانها وانظمة الحكم فيها . سواء منها ما لا يزال يخضع لانظمة محافظة ، وما قد اعلن اعتناقه لانظمة ثورية. ولنواجه هذا المغزى باقصى ما نستطيع من مصارحة .

اما الاقطار الاولى فلا تزال حرية الفكر فيها مقيدة بقيود عظيمة تضيق على المفكرين الخناق ، ولا يزال هؤلاء المفكرون يتحملون العقاب والادانة بمختلف التهم ، من اتهامهم بانهم كفرة ملحدون ،او متحللون مفسدون ، او مارقون عن العروبة ، الى اخر ما تحتويه تلك القائمة من الفاظ الاباحية والشعوبية والعمالة الخ ..

واما الاقطار التي قامت فيها ثورات تحريرية فانها هي ايضا لا تزال بعيدة عن توفير الحرية الفكرية الكاملة لمفكريها في نقد الاوضاع والمفاهيم والقيم الدينية والاخلاقية والوطنية الشائعة بين الجماهير المحافظة . بل الظاهرة العجيبة المحزنة ان هذه الانظمة الثورية قد تكون اكثر حساسية تجاه التهم الدينية والخلقية والقومية من الانظمة الرجعية ، وكأنها تدفع ضريبة تحررها السياسي والعسكري والاقتصادي بتضييق زائد على مفكريها في شؤون الفكر الديني والاخلاقي والوطني .

وهذا خطأ بليغ يدرك مداه من تابع مقالاتنا هذه . فلا نجاح يبقى لهذه الانظمة الثورية ان تشفع تغييرها العملي الذي فرضته بسلطة القانون بتغيير جذري عميق في كافة المفاهيم والقيم المتخلفة من النظام القديم ، في ثورة فكرية تتناول بالنقد الحر الطليق جميع معتقداتنا وارائنا ومسلماتنا وتقاليدنا وعقدنا . هذا وحده هو الذي سيمكن حكوماتنا الثورية في مختلف اركان وطننا العربي من تحقيق هدفها المنشود في انتشال امتنا من مخلفات قرون التأخر والانحدار والسعي الى حياة راقية متحررة كريمة تستعيد لها مكانتها العزيزة وتسترد ارضها المغتصبة وحقوقها المضاعة . وبدون هذه الثورة الفكرية تظل كل انجازاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والتشريعية معرضة لخطر الردة الذي تهددها به القوى الرجعية ، تلك القوى التي سلم ميثاقنا بانها لا تزال كامنة في اعماق مجتمعنا .

القاهرة

محمد النويهي

« نحو ثورة ثقافية عربية »

في مطلع نيسان (ابريل) ١٩٧٠، تصدر ((الآداب)) عددها السنوي الممتاز الذي يشارك في تحريره نخبة من الادباء العرب، معالجين مختلف الموضوعات المتصلة بالدعوة الى ثورة ثقافية عربية شاملة في السياسة والفلسفة والدين واللغة والادب والاجتماع والاقتصاد. وستتناول هذه الابحاث بصورة خاصة واقع الادب العربي الحديث ، بمختلف الوانه وفنونه ، ومستقبله المرجو ، وسيكون لادب الشباب قسط وافر من هذه الابحاث .

والباب مفتوح لجميع المفكرين والباحثين والنقاد والادباء ممن لا تستطيع المجلة ان تتصل بهم ،للمشاركة في تحرير هذا العدد الممتاز ، على الا تتاخر المادة المرسلة عن آخر شباط (فبراير) ١٩٧٠ .